مكارم الأخلاق في نظر الإسلام

إعداد الدكتورة: ربيحة إلغات.
أستاذة محاضرة بكلية العلوم الإسلامية،
جامعة الجزائر1.

مقدمة:

لقد كانت العرب أحسن الناس أخلاقاً بما بقي عندهم من الشرائع السماوية السابقة ولكنهم ضلوا بالكفر عن الكثير منها وبقيت عندهم أثارة من هذه الفضائل الموروثة من الحنيفية الإبراهيمية، فجاء الإسلام لا ليهدم هذه الفضائل الخلقية ولكن ليتبنى كل الفضائل والأخلاق الحميدة، ويضع لكل فضيلة المكانة اللائقة بها ضمن رسالته الكاملة للحياة البشرية ويوسع مجال تطبيقها لكي يغطي كل نواحي الحياة : الفردية والجماعية للبشر كافة، فكانت رسالته – صلى الله عليه وسلم – تأكيداً على أهمية الأخلاق وإقامتها في التعامل مع الخالق جل وعلا أولاً ، ثم في التعامل مع المخلوق ؛ سواء أكان الإنسان وغيره من الناس ، أو الإنسان ونفسه ، أو الإنسان وغيره من الكائنات الأخرى.

وسنتناول من خلال هذا البحث مكارم الأخلاق التي دعا إليها ديننا الحنيف ودلك من خلال بيان مكانة حسن الخلق عند الله تعالى، ثم بيان معاملة النبي(ص) مع أهله، وأخيرا نعرج على دور الكلمة الطيبة في تقوية أواصر التآخي والألفة بين المسلمين.

المبحث الأول: مكانة حسن الخلق عند الله تعالى

رفع الإسلام حسن الخلق إلى أعلى المقامات حيث كان ﷺ أسوة في حسن الخلق لذا قال الله تعالى في حقه:﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1] قال الإمام ابن كثير في تفسيره: قال عطية: (وإنك) لعلى أدب عظيم، وقال مَعْمَر، عن قتادة: سُئلت عائشةُ عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: كان خلقه القرآن، تقول كما هو في القرآن.

وقال سعيد بن أبي عَرُوبَة، عن قتادة قوله: { وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ } ذكر لنا أن سعد بن هشام سأل عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقالت: ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قالت: فإن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن[2].

وقالe« أدبني ربي فأحسن تأديبي» فما بالك بما يستعظمه الله جل شأنه، بل جعل الله تعالى تكميل صالح الأخلاق أحد المقاصد الرئيسية لبعثه رسولا، فعن أبي هريرةرضي الله عنه قال رسول اللهe« إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[3]، وفي رواية أخرى» مكارم الأخلاق»، وعن أبي ذر الغفاريﷺ قال رسول الله ﷺ « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[4].

وعن عبد الله بن عمرﷺ أن معاذ بن جبل أراد سفرا فقال يا رسول الله أوصني، فكان من وصيتهe« استقم وليحسن خلقك للناس»[5].

---

1 – سورة القلم، الآية 04.

2 – ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 8/188.

3 – رواه البخاري في الأدب المفرد رقم 273، وابن سعد في الطبقات(1/192) والحاكم(2/313) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي والإمام أحمد.

4 – رواه الترمذي رقم 1988، في باب ما جاء في معاشرة الناس وحسنه.

5 – أخرجه ابن حبان رقم 1922، والحاكم(4/244) وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في الصحيحة رقم 1228.

وعن أسامة بن شريك رضي الله عنه مرفوعا« أحب عباد الله إلى الله أحسنهم خلقا»[1].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ« إن أحبكم إلي وأقربكم مني في الآخرة مجلسا، أحاسنكم أخلاقا، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني في الآخرة أسوؤكم أخلاقا، الثرثارون المتفيهقون المتشدقون»[2].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ« ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة»[3].

ولم يكتف الشرع بعموم النصوص التي تحث على حسن الخلق كافة، بل خص النساء بذلك وجعل حسن الخلق معهن معيار الأفضلية والخير، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ« أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وخياركم خياركم لنسائهم» [4]، وفي حديث آخر قال: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي» براً ونفعاً وقال أيضا: «ما أكرم النساء إلا كريم وما أهانهن إلا لئيم».

---

1 – رواه الطبراني كما في الترغيب(3/259). وصححه الألباني في الصحيحة رقم 433.

2 – أخرجه الترمذي رقم 2019 في البر والصلة، باب ما جاء في معاني الأخلاق، وقال حسن غريب من هذا الوجه(3/261).

3 – أخرج الترمذي رقم 2003 في البر والصلة باب ما جاء في حسن الخلق، وأبو داود رقم 4799 في الأدب، والبزار بإسناد جيد كما في الترغيب والترهيب(3/256).

4 – أخرجه الترمذي(1/217) وقال حسن صحيح، والإمام أحمد(2/250)، وأخرجه ابن حبان من طريق آخر 1311، وصححه الألباني في الصحيحة رقم 284.

المطلب الأول: التحلي بمكارم الأخلاق مع الأهل

إن الزوجة أمانة ووديعة يسلمها وليها لمن يحافظ عليها ويتق الله فيها ويحسن صحبتها، قال الحجر بن قيس، خطب علي ﷺ إلى رسول الله ﷺ فاطمة رضي الله عنها فقال ﷺ «هي لك على أن تحسن صحبتها»[1].

وإن مما يعين المرء في الصبر على أهله وكف الأذى عنهم وحسن الخلق معهم، تذكر ساعة فراق الأحباب التي قد تأتيه بغتة وإن طال العمر كما روى سهل بن سعد ﷺ مرفوعا أن النبي ﷺ قال:« أتاني جبريل فقال يا محمد عش ما شئت فإنك ميت وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزى به»[2].

أيا فرقة الأحباب لا بد لي منك// ويا دار دنيا إني راحل عنك.

وقال الحسن: إبدأ أهلك بمكارم الأخلاق، فإن الإقامة فيهم قليل[3].

وعن هشام قال: كان الحسن إذا أصبح وإذا أمسى قال لأهله ثلاث مرات: يا أهلاه الثوي فيكم قليل[4].

المطلب الثاني: موقف الشرع من غلظة الطبع.

عن أبي هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ « إن الله يبغض كل جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ سَخَّابٍ في الأسواق، جيفة بالليل، حمار بالنهار، عالم بأمر الدنيا، جاهل بأمر الآخرة»[5].

1 – رواه الطبراني في الكبير(4/40)، وصححه الألباني في الصحيحة رقم 166.

2 – أخرجه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن كما في المجمع (10/219) والترغيب(2/11) وحسنه العراقي كما نقله عنه في فيض القدير(1/103)، وحسنه الألباني بطرقه كما في الصحيحة رقم 831.

3 – الطرطوشي، بر الوالدين، ص178.

4 – رواه الإمام أحمد في الزهد، ص272.

5 – رواه ابن حبان 1957، والبيهقي (10/194) وصححه الألباني في الصحيحة رقم 195. وفسر

وفسر الجعظري: بالفظ الغليظ المتكبر، والجواظ: الجموح المنوع، والسخاب: كثير الضجيج والخصام.

وقد جاء في تفسير قوله ﷺ « إن الله يبغض كل جعظري جواظ» هو الشديد على أهله المتكبر في نفسه، وهو أحد ما قيل في معنى قوله تعالى:﴿ عتل﴾ قيل العتل؛ هو فظ اللسان غليظ القلب على أهله.

قال الشاعر: ولا أوذي الأنام وكيف// يؤذي عباد الله منتظر الرحيل.

المطلب الثالث: تأثر السلف بحسن الخلق

لقد تأثر المسلمون الأوائل بهذه التوجيهات الإلهية والإرشادات النبوية إلى حسن الخلق مع أهليهم فطبقوها وانفعلوا بها أشد الانفعال، فحفل تاريخهم بمواقف مشرقة يضرب بها المثل في الفتوة والصبر والتحمل.

ومن أمثلة ذلك ذكر ما يلي:

- روى البخاري في صحيحه أن السيدة أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: تزوجني الزبير وما له في الأرض من مال ولا مملوك و لا شيء غير ناضحه[1] وفرسه الذي يستقي عليه فكنت أعلف فرسه، زاد مسلم: وأسوسه وأحتش له وأقوم عليه ، وأدق النوى لناظحه وأستقي الماء و أخرز غرفه[2]، ولم أكن أحسن وأخبز فكانت تخبز جارات لي من الأنصار وكنا نسوة صدق، وكنت أنقل النوى على رأسي من أرض الزبير وهي مني على بعد ثلثي فرسخ[3] حتى أرسل إلي أبو بكر بجارية فكفتني سياسة الفرس فكأنما أعتقني، فجئت يوما والنوى على

الجعدري بالفظ الغليظ المتكبر، والجواظ: الجموح

1 - ناضحه: بعيره الذي يستقي عليه.

2 - أخرز غرفه أي تخيط دلوه بالخرز.

3 - الفرسخ 3 أميال وثلثاه، 3كيلومتر، فاصلة 36 متر.

رأسي فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفر من الأنصار فدعاني رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال: إخ إخ يستنيخ ناقته ليحملني خلفه، فاستحييت أن أسير مع الرجال وذكرت الزبير وغيرته، وكان أغير الناس فعرف رسول الله ﷺ أني قد استحييت فمضى. فجئت الزبير فقلت: لقيني رسول الله عليه الصلاة و السلام وعلى رأسي النوى ومعه نفر من أصحابه، فأناخ لأركب فاستحييت منه وعرفت غيرتك فقال: والله لحملك النوى على رأسك أشد علي من ركوبك معه[1].

المبحث الثاني: معاملة النبي ﷺ لأهله

قالت عائشة رضي الله عنها حين سئلت عن خلقه ﷺ : كان خلقه القرآن، ومعاشرته لأهله كانت بالتغاضي وعدم تعقيد الأمور صغيرها وكبيرها، وعدم التوبيخ والتعليل في كل شيء إلا في حقوق الله عزوجل لقوله تعالى:﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾[2].

وعن أنس رضي الله عنه قال : "كان ﷺ أحسن الناس خلقا"[3] وقال: "خدمت رسول الله عشر سنين فما قال لي قط أف، وما قال لي لشيء فعلته لم فعلته، ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا"[4].

---

1 – رواه البخاري ٢٨١/٩ –٢٨٢ ومسلم رقم ٢١٨٢ وابن سعد في الطبقات ٢٥٠/٨ و الإمام أحمد ٣٤٧/٦ و ٣٥٢.

2 – سورة التحريم، الآية03.

3 – صدر الحديث رواه البخاري(10/436). في الأدب، باب الإنبساط إلى الناس، ومسلم 2150 في الأدب.

4 – رواه البخاري(10/383) في الأدب، باب حسن الخلق، في السخاء ومسلم رقم 2309 في الفضائل.

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: "ما ضرب رسول الله ﷺ شيء قط بيده لا خادما ولا امرأة، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيئا قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله، فينتقم"[1].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ منتصرا من مظلمة ظلمها قط، ما لم ينتهك من محارم الله شيء، فإذا انتهك من محارم الله شيئا كان من أشدهم في ذلك غضبا، وما خيير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن مأثما"[2].

وصفت أعرابية زوجها وقد مات فقالت: والله لقد كان ضحوكا إذا ولج، سكوتا إذا خرج، آكلا ما وجد غير سائل عما فقد[3].

المطلب الأول: حسن التخلق مع الناس

يقتضي حسن معاملة الناس طلاقة الوجه والبشاشة وقد بين ﷺ أن ذلك من المعروف، فعن جابر بن سليم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: « لا تحقرن شيئا من المعروف، وأن تكلم أخاك وأنت منبسط إليه بوجهك فإن ذلك من المعروف»[4].

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة»[5].

---

1 - رواه مسلم 2327 في الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام، وأبو داود رقم 4786 في الأدب باب التجاوز في الأمر.

2 - رواه البخاري(6/419) في الأنبياء والأدب والحدود والمحاربين.

3 - الغزالي، الإحياء، (4/724).

4 - أخرجه أبو داود رقم 4084 في اللباس وصححه ابن حبان رقم 1221.

5 - رواه البخاري(6/450-451) في الأنبياء، باب علامات النبوة في الإسلام.

وعن أبي هريرةﷺ قال قال رسول اللهﷺ« الكلمة الطيبة صدقة»[1].

ومن أحق من الزوجة بهذا المعروف، فهذه صدقة.

المطلب الثاني: فوائد حسن الخلق

ما أجدر الزوجان أن يعودا لسانهما على الكلام الطيب في أول حياتهما الزوجية، ومما يتصل بالكلمة الطيبة، طريقة إلقائها فقد تزيد هذه الكلمة إن كانت حلوة عذبة من تأثيرها، وما أجدرنا أن نعود عضلات وجوهنا على الابتسامة التي تبسط أكثر المسائل تركيبا وتعقيدا وتمنحنا قوة في التغلب على كل المصاعب، وقد قال أستاذ يعظ شابا: " إذا أردت أن تعرف ما يفعله العبوس، فانظر وجهك في المرآة عنددما تكون غاضبا عابسا، تأمل وجهك كم هو منفر وقبيح، وانظر كم يجلب مثل هذا الوجه على صاحبه من السخط والأذى"[2].

قال القرطبي: وهذا كله حظ على مكارم الأخلاق، فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس ليّنا وجهه منبسطا طلق مع البار والفاجر من غير تنميق أو تصنع، إن الله تعالى قال لموسى وهارون، ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[3] فالقائل ليس بأفضل من موسى وهارون، والفاجر ليس بأخبث من فرعون، وقد أمرهما الله تعالى باللين معه.

وقال طلحة بن عمر قلت لعطاء: إنك رجل يجتمع عندك أناس ذوو أهواء مختلفة، وأنا رجل في حدة، فأقول لهم بعض القول الغليظ، يقول الله تعالى:﴿ وقولوا للناس حسنا﴾ فدخل في الآية اليهود والنصارى فكيف بالحنيف[4].

1 – رواه البخاري(5/226) في الصلح، باب فضل الصلح بين الناس وفي الجهاد، ومسلم رقم 1009 في الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف.

2 – د/ محمد الصباغ، نظرات في الأسرة المسلمة، ص90.

3 – سورة طه، الآية 44.

4 – القرطبي، الجامع لأحكام القرآن(2/16).

المطلب الثالث: التأسي برسوله الله ﷺ في حسن الخلق.

لقد خاطب الله تعالى نبيه الكريم عليه الصلاة والسلام:﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[1] فلو كان رسول الله ﷺ المؤيد بالعزم والحكمة والمعزز بالتسديد والتأييد، فلو كان فظا غليظ القلب لانفض أصحابه من حوله وبقي وحيدا.

إذا كان هذا القول بالنسبة للرسول ﷺ فما القول بالنسبة للناس الآخرين الذين لم يؤيدوا بما أويد به، ولم يؤتوا ما أوتي من الخلق العظيم الذي أثنى الله تعالى عليه بقوله:﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2].

إن لين الجانب ورقة المعاملة أساس لاجتماع القلوب وليس هناك وسيلة تحقق ذلك اللين وتلك الرقة أهم من الكلمة الحسنة، وهي ترضي الله تعالى وتدخل صاحبها الجنة، وعن أنس ﷺ قال: قال رجل للنبي ﷺ ؛ علمني عملا يدخلني الجنة، قال ﷺ « أطعم الطعام وأفش السلام وأطب الكلام وصل بالليل والناس نيام»[3]، وعن ابن عمر ﷺ قال رسول الله ﷺ « إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، فقال أبو مالك الأشعري لمن هي يا رسول الله، قال: لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وبات قائما والناس نيام»[4].

المبحث الثالث: دور الكلمة الطيبة في الوحدة والتآخي

الكلمة الطيبة غذاء للروح وشفاء لأمراض النفس ولها تأثير قد يغير حياة الإنسان أو أمة، من أجل ذلك كان وجوب إقتران القول الحسن مع الأمور الأسلسية في العقيدة والعبادة والسلوك،

---

1 - سورة آل عمران، الآية 159.

2 - سورة القلم، الآية 04.

3 - رواه البيهقي(10/158). وابن حبان رقم 642.

4 - أخرجه الإمام أحمد(5/343)، والحاكم في المستدرك(1/80) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي، وكذا رواه الترمذي رقم 1985 من حديث علي ﷺ.

كتوحيد الله وإقامة الصلاة وبر الوالدين وحسن معاملة الزوجة من أهم ما دعت الشريعة إلى تحقيقه وإقامته، فالآية ترشدنا إلى القول الحسن في هذه الأمور، ونود أن نعيش لحظات في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾[1]. نطل من خلالها على حياتنا الاجتماعية والأسرية.

كم تضيع علينا في حياتنا الإجتماعية والأسرية فرص سعادة وغنى وأنس كنا على مقربة منها لو قلنا كلمة حلوة، ولكننا أضعناها عندما لم نرق بالكلمة الطيبة، إن كلمة واحدة تستطيع أن تفعل شيئا كبيرا، فبسبب كلمة قامت حروب، وبسبب كلمة تآلفت قلوب.

إن الكلمة الطيبة أساس متين تبنى عليه علاقة المودة والرحمة والصلة ونتاج للتربية الأصيلة الصادقة وهي التي تهييء المناخ المناسب لنمو هذه العلاقات ولتثمر الثمرة المرجوة سعادة وصلاحا وابتهاجا وانطلاقا وتحقيقا لكثير من معاني الخير، وإن الكلمة الطيبة أغلى عند الزوجة في كثير من الأحيان من الحلي الثمين والثوب الفاخر الجميل، ذلك لأن العاطفة المحببة التي تبثها الكلمة الطيبة غذاء الروح، فكما أنه لا حياة للبدن بلا طعام فكذلك لا حياة للروح بلا كلام طيب نظيف.

لماذا نهمل الكلمة الطيبة في نطاق الأسرة وهي لا تكلفنا شيئا، إن السعادة كلها ربما كانت في كلمة فيها مجاملة ومؤانسة يقولها أحد الزوجين لصاحبه، أو الوالد لابنه، إن علينا أن تكون ألسنتنا رطبة بذكر الله وبالكلام اللين الجميل، لا سيما عندما يخاطب أحد الزوجين الآخر لأن المرأة عاطفية رقيقة إلى أبعد الحدود، إن بعض الأسر تبني حياتها على فهم خاطئ لفكرة رفع الكلفة حتى إن كثيرا من الأزواج ليقعون في الأخطاء المدمرة لحياتهم العائلية بحجة رفع الكلفة، كأن يقول أحدهم لقد مر على زواجنا زمن طويل فلا مجال للمجاملة والمؤانسة أو يقول آخر إن زوجتي ولدت عددا من الأولاد، فلم نعد عروسين نحتاج إلى الملاطفة والمجاملة أو الكلمة المؤنسة، فقد مضى وقت ذلك!.

1 – سورة البقرة، الآية 83.

إن هذا خطأ فادح يجر ذيول التعاسة والشقاء على عش الزوجية وقد يدمر بناء الأسرة ويقضي على نفسية الأولاد.

لماذا لا تكون الملاطفة مع من نعايش، لماذا لا تكون الكلمة الطيبة مع الأزواج والأولاد حتى وإن تقدمت الأيام والسنون، سواء أنجبوا أم لم ينجبوا، ولو أننا نظرنا إلى حياة رسول الله ﷺ مع أزواجه لرأينا أنها مثال الملاطفة والمؤانسة، فقد كان ﷺ يؤانسهن ويمازحهن ويعمر نفوسهن بالكلمة الطيبة والنظرة الحانية والتصرف الودود، ويحتمل منهن أخطاءهن.

إن تجاهل حاجة الزوجة إلى العاطفة العذبة التي تفيض بها الكلمة الطيبة تتولد لدى الزوجة الشحناء والغلظة والبغضاء مما يعكر على الزوج حياته لأننا نعيش بالمعاني لا بالأجساد فقط لقوله تعالى:﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾[1].

ولا يجدي تحجر القلوب من المعاني شيئا، إن الإبتسامة المشرقة المقرونة بالكلمة الطيبة من الزوج تذيب تعب الزوجة وتنعش فؤادها المشرئب للعطف والحنان تأسيا برسول الله ﷺ الذي قال فيه الحق تعالى:﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾[2].

فلا غرابة أن يشكر الزوج زوجته بإبتسامة ونظرة عطف وحنان على الطعام الذي أعدته أو على تنظيم وترتيب البيت، ولا بأس أن يثني عليها ويتحدث عن محاسنها وجمالها، والنساء يعجبهن الثناء ويؤثر فيهن.

وإذا كان الكذب محظورا فقد أباح الإسلام طرفا منه في العلاقة الزوجية إذا كان ذلك سببا لتعميق المودة وتحقيق التفاهم لا بأس من أن يبدي الزوج إعجابه وامتنانه لرعايته وخدمته

1 - سورة البقرة، الآية 74.

2 - سورة الأحزاب، الآية 21.

وحسن تربية الأولاد وتنظيم البيت وإن كان هذا من اختصاصاتها لأنها تقدم ما تقوم به النساء عادة، لكن ذلك من قبيل اللكلمة الطيبة التي تؤكد أسباب المودة والرحمة، فالكلمة الطيبة تهيمن على شعورها الرقيق، حتى وإن أنقصها شيئا من المال والطعام والكساء، فإنها حينئذ ستسعد وستحسن معاملته لأنها تشعر بدفء الحنان والرعاية والأمان والإطمئنان، سينطلق لسانها بالحديث عن الزوج وإليه بالكلمة الطيبة.

قد تتساءل بعض الزوجات ماذا يريد الزوج مني أكثر من هذا؟ ألا يجد طعامه مطهيا مقدما في وقته، وثوبه مكويا وبيته نظيفا وأولاده نظيفين دارسين وحاجته وحاجتهم مهيأة، إنه لا يأمر بشيء إلا حققته؟ وما يريد حاجة إلا أسرعت في تنفيذها؟.

إن الحياة الزوجية لا تبنى على مثل هذه الأمور فقط، لأن الزوج بحاجة إلى العاطفة التي هي الزوجة مصدرها، وإلى الابتسامة المشرقة التي تبدد وتنسيه ظلمات الكآبة التي تعترضه في الحياة، إنه يريد أن يرى الإنسانة التي تعنى به وتظهر له الاهتمام الكبير وتشعره بأنه بالنسبة إليها قطب الراحة وأساس السعادة، إنه يريد أن يسمع كلمة الشكر والشوق والرغبة في المؤانسة والابتهاج به عند اللقاء، إن ذلك كله مفتاح باب السعادة التي يحويها معنى الزوج.

المطلب الأول: قيمة الكلمة الطيبة في نطاق الأسرة.

إن كلمة شكر وامتنان من الزوجة مع ابتسامة عذبة تسديها إلى الزوج بمناسبة شرائه متاعا إلى البيت أو ثوبا لها، تدخل عليه من السرور الشيء الكثير، خاصة إذا رددت من حين إلى آخر عبارات الإعجاب بمزاياه واعتزازها بالزواج منه، وأنها ذات حظ عظيم، إن ذلك يرضي رجولته ويزيده تعلقا بها خاصة إذا قابلته ساعة الدخول وتناولت منه ما اقتناه من متطلبات للعائلة وقد أتعبه ذلك الحمل الثقيل، فذلك كله من الكلمة الطيبة التي تجلب لها السعادة، ولا تكلفها شيئا، وتعود عليها بالنفع العام.

وخلاصة القول؛ أن هناك أمور يسيرة متصلة بالكلمة الطيبة يتجاهلها كل من الزوجين في حياتهما العائلية فيضيعا على أنفسهما سعادة كبيرة ويصليان من وراء ذلك نار الخلاف والشجار والشحناء والبغضاء مدة العيش المشترك بينهما، طالت هذه المدة أم قصرت.

إن هذه الأمور اليسيرة لمن ينتبه إليها عظيمة الجدوى والنفع لمن يأخذ بها ويحققها فهي بالنسبة إلى الزوجين وإن كانت ظروف حياتنا تجعل هذه الأمور مطلوبه من الزوجة بصورة أكيدة.

أعظم الناس حماقة من يفوت على نفسه السعادة من تجاهله أمرا لا يكلفه شيئا، وإهماله أدبا قد نصح به، ومما يؤسف له حقا أن كثيرا من الأزواج والزوجات يخالفون التوجيهات وآداب حسن العشرة متعذرين بأعذار واهية عدة، كدعوى زوال الكلفة أو دعوى الرغبة في البساطة أو دعوى الميل إلى المرح، تلك هي أعذار باطلة مردودة لا تصح ولا تصدق.

وهذه المخالفة كما نلاحظها في الحياة الواقعية تؤدي في كثير من الأحيان إلى مشكلات إجتماعية تعكر صفو الحياة الزوجية ويوسطون الناس لحلها، وقد ييأسون من العلاج فينتهي بهم الأمر في بعض الحالات إلى الفراق والطلاق، وقد كانوا قادرين على تلافي تلك المشكلات لو أنهم انتبهوا إلى هذه الأمور اليسيرة الهينة، بل لقد كانوا قادرين على إحلال السعادة والتفاهم والرضا والسرور محلها.

ومن المعاشرة بالمعروف أن يسلم على أهله إذا دخل عليهم، فعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ « يابني آدم إذا دخلت على أهلك فسلم يكن سلامك بركة عليك وعلى أهل بيتك»[1].

---

1 - رواه الترمذي رقم 2698 في الاستئذان وقال حديث حسن صحيح، وفيه علي بن زيد بن جذعان، وقال الألباني هو كما قال الترمذي، فإن له طرقا كثيرة يتقوى الحديث بها، وقد جمعها الحافظ بن حجر في جزء صغير انتهى فيه إلى تقوية الحديث ، من تحقيق الكلم الطيب رقم 62.

ومن المعاشرة بالمعروف أن يكرمها بما يرضيها ومعالجتها ومداواتها إذا مرضت وإن طال المرض وحال دون انتفاعه بها، كذلك من الوفاء وحسن العشرة والمعروف الذي أمر الله به أن يباشر بنفسه رعايتها ويلازمها إذا مرضت، فقد تغيب ذو النورين عثمان بن عفان في غزوة بدر لأن زوجته رقية ابنة رسول الله ﷺ كانت مريضة، فقال له ﷺ « أقم معها ولك أجر من شهد بدر»[1].

المطلب الثاني: اهتمام الرسول الله ﷺ بزوجاته

قال ابن كثير رحمه الله: وكان من أخلاق النبي ﷺ أنه جميل العشرة دائم البشر، يداعب أهله ويتلطف معهم ويوسعهم نفقاته ويضاحك نساءه حتى إنه كان يسابق عائشة رضي الله عنها ويتودد إليها بذلك، قالت: سابقني رسول الله ﷺ فسبقته، وذلك قبل أن أحمل اللحم، ثم سابقته بعد أن حملت اللحم فسبقني فقال: هذه بتلك، وكان عليه الصلاة والسلام يجمع نساءه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها، وكان عليه الصلاة والسلام إذا صلى العشاء يدخل منزله ويسمر مع أهله قليلا قبل أن ينام، وقد قال فيه الله تعالى:﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان ﷺ إذا صلى ركعتي الفجر، فإن كنت مستيقظة حدثني، وإلا اضطجع حتى يؤذن للصلاة»[3]، وكانا يتبادلان السمر بالأحاديث الخفيفة والقصص ذات الموعظة الحسنة كما في حديث أبي زرع لأم زرع المتقدم، حيث قال ﷺ لعائشة: كنت لك كأبي زرع لأم زرع[4]، فأظهر استعداده لتحمل النفقة والعطف والمودة والإحسان، وحسن

1 – رواه البخاري (7/48) في مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه.

2 – سورة الأحزاب، الآية 21.

3 – رواه البخاري(6/36) في التطوع، ومسلم رقم43 في صلاة المسافر.

4 – أصل الحديث رواه البخاري(9/220-241) في النكاح، باب حسن المعاشرة مع الأهل، ومسلم رقم 2448 في فضائل الصحابة، باب ذكر حديث أم زرع.

المعاشرة ، وفي رواية بزيادة إلا أنه طلقها وأنا لا أطلق فقالت عائشة رضي الله عنها، يا رسول الله بل أنت خير من أبي زرع[1].

المطلب الثالث: الميثاق الغليظ دافع لحسن التخلق

قال الله تعالى في تعظيم حق النساء:﴿وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾[2]

قال الزمخشري: الميثاق الغليظ حق الصحبة والمضاجعة ووصفه بالغلاظة لقوته وعظمه، فقد قالوا صحبة عشرين يوما قرابة فكيف بما جرى بين الزوجين من الاتحاد والامتزاج، قال الشهاب الخفاجي: صحبة يوم نسب قريب وسمة يعرفها اللبيب[3].

قال تعالى:﴿ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾[4]، قيل: هي المرأة.

وليس حسن الخلق مع الزوجة كف الأذى عنها فحسب بل احتمال الأذى منها والحلم عند طيشها وغضبها اقتداءً برسول الله ﷺ وقد كانت أزواجه تراجعنه الكلام وتهجره الواحدة إلى الليل، وراجعت عمر بن الخطاب امرأته في الكلام فقال لها أتراجعينني يا لكعة فقالت: إن أزاوج رسول الله ﷺ يراجعنه وهو خير منك[5].

ومع انشغاله ﷺ بتبعات الدعوة وشؤون المسلمين كان لا يؤلي جهدا عن مجاملة زوجاته، فكان عليه الصلاة والسلام يرخم اسم عائشة رضي الله عنها فيخاطبها: يا عائشة ويا عويش ويا حميراء، ويدخل السرور على قلبها، وكان عليه الصلاة والسلام يقول لها إني لأعلم إن كنت

---

1 - هذه الزيادة أخرجها النسائي في عشرة النساء رقم 256، انظر: مختصر الشمائل المحمدية للألباني،ص134.

2 - سورة النساء، الآية 21.

3 - انظر: محاسن التأويل، 1165.

4 - سورة الآية 36.

5 - أخرجه البخاري رقم 2468 في المظالم، وراجع الإمام الغزالي، الإحياء، (4/120-122).

عني راضية، وإذا كنت علي غضباء، قالت فقلت: ومن أين تعرف ذلك؟ أما إذا كنت عني راضية تقولين: لا ورب محمد، وإذا كنت عني غضباء تقولين: لا ورب إبراهيم، قالت: أجل والله يا رسول الله، ما أهجر إلا اسمك[1].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر في سهوتها ستر، فهبت ريح فكشفت ناحية الستر عن بنات عائشة لعب، فقال ما هذا يا عائشة، فقالت بناتي، فرس له جناحان من رقاع، فقال عليه الصلاة والسلام، ما هذا الذي أرى وسطهن؟ قالت فرس، قال: وما هذا الذي عليه؟ قالت: جناحان، قال: فرس له جناحان! قالت: أما سمعت أن لسليمان خيل لها أجنحة! قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه[2].

1 - رواه البخاري(9/285) في النكاح، باب غيرة النساء ووجدهن، وفي الأدب، ومسلم رقم 2439 في فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة رضي الله عنها.

2 - رواه أبو داود رقم 4932 في الأدب باب في اللعب بالبنات والنساء، في عشرة النساء رقم 64 ص95-94.؛ حميراء: تصغير لحمراء، ويريد البيضاء كما جاء في النهاية(1/438)

فهرس المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم بن أبي النجود الكوفي.

2. ابن كثير إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، سنة 1999م.

3. القرطبي محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، السعودية، سنة 1423 هـ.

4. البخاري محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح المختصر، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، لبنان، ط3، سنة 1987م.

5. مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، دار الجيل، بيروت – دار الأفاق الجديدة، بيروت، لبنان.(د.ت).

6. البيهقي أحمد بن الحسين، سنن البيهقي الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، سنة 1414هـ.

7. الترمذي محمد بن عيسى، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان.

8. أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني ، سنن أبي داود، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

9. الطبراني سليمان بن أحمد، المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد– عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، سنة 1415هـ.

10. النيسابوري محمد بن عبد الله، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، سنة 1411هـ.

11. محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، الأدب المفرد، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط3، 1989.

12. أبو بكر الطرطوشي، بر الوالدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2002.

13. أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت،(د.ت).

14. محمد الصباغ، نظرات في الأسرة المسلمة، المكتب الإسلامي، بيروت لبنان، ط2، 1988.

15. محمد ناصر الدين الألباني، مختصر الشمائل المحمدية، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن.